لقد استخدم الدين بصورة صارخة في حالة يهود الهند كسلاح في الصراع الاجتماعي لفئات دينية واحدة ولكنها مختلفة اثنيا واجتماعيا · والدراسة تورد الكثير من اوجه التناقض اولا بين البيض والسود من « بني اسرائيل » من جهة ، وبين « بني اسرائيل » ككل وبين « البغداديين » من جهة اخرى · وكأن موطن الخلاف في الظاهر يدور حول نقاوة يهودية كل مجموعة فالبيض من « بني اسرائيل » يدعون انهم العنصر الاكثر نقاء من السود ، و « البغداديون » يلقون بالشك على مدى جدية ونقاوة يهودية « بني اسرائيل » ، ويأخذون عليهم اختلاطهم واندماجهم الكامل في مجتمعهم· ويترك هذا الخلاف بصماته على الحياة الاجتماعية والدينية لكل مجوعة متخذا مظاهر منها : استقلال في المؤسسات الدينية والاجتماعية والتعليمية لكل مجموعة ، اختلاف في العادات الاجتماعية وندرة حالات الزواج المختلط ·· الى غير ذلك · وقد انتقل هذا الخلاف مع هجرة المجموعات الاولى القليلة من « بني اسرائيل » الى اسرائيل التي هاجرت اما لاسباب دينية او اقتصادية ، حيث ان التأثيرات الصهيونية بينهم ضعيفة كما تذكر الدراسة ـ (ص ١٦٧) · وادرك الوافدون الجدد الى اسرائيل انهم ضيوف يصعب قبولهم ، وقرر العديد منهم العودة (ص ٥٦) ·

ان هذه الفوارق تفسر لنا عدم نجاح تلك المحاولات التي جاءت في معظمها بدفع من مؤسسات خارجية الى تجميع تلك المجموعات المختلفة في الهند من اليهود في اطار مجموعة واحدة متجانسة على مستوى عموم الهند ، فتذكر الدراسة انه عندما تشكلت « رابطة ومؤتمر عموم الهند الاسرائيلية » لبعض الوقت عام ١٩١٧ كان « بنو اسرائيل » يرون حصر دورها في القضايا الاجتماعية للطائفة وعارضوا اعطاءها اي مدلول سياسي ·

ورفضوا على الدوام كل مامن شأنه ان يوجد نوعا من ازدواجية الولاء عندهم·· فهم هنود وهنود فقط (ص ٥٣ ، ١٤٤)

ان تلك الحجة التي تطرح للتشكيك في يهودية « بني اسرائيل » بسبب ماقيل أنه «انقطاع او عزلة عن تعاليم اليهودية» لا يغير من حقيقة وجوهر الصراع الذي هو بالتالي صراع اجتماعي · هذا عدا ان الانسياق وراء تلك الحجة يبدو انه ليس صحيحا على اطلاقه ، فالدراسة تذكر على سبيل المثال في اكثر من موقع في الكتاب ما ينفي او يضعف من تلك الحجة، فهي تذكر انه في القرن الثالث عشر كان لدى « بني اسرائيل » قضاة ومجالس دينية (Sanads) خاصة بهم (ص ٣٦) · وانه خلال فترة السيطرة الكولونيالية في القرنين الثامن والتاسع عشر وصل بعض المبشرين الدينيين من خلال الشركات الاستعمارية العاملة في الهند ·

ان مقال « بني اسرائيل » يعكس بصورة حادة ، تهافت ووهن تلك الحجج والتبريرات الساعية الى محاولة اضفاء صفة التجانس القومي بين مجموعات اثنية وسوسيولوجية مختلفة من يهود العالم · وتظلل باشارات استفهام كبيرة ـ كما تتوصل الباحثة في نهاية دراستها ـ مسألة تعريف من هو اليهودي وبالتالي تطرح بالحاح ضرورة فك ذلك «اللغز المستعصي» ·

ان تلك الملاحظة الهامة التي ابداها أحد افراد « بني اسرائيل » للباحثة (ص ٤٧) ، تلخص المسألة بوضوح كاف عندما يقول : «هل تظنين حقا ان البغداديين ينطلقون حقا في اتهامنا من أننا لسنا يهودا انقياء من دوافع حرصهم على اليهودية ؟ انها محاولة منهم فقط لاثبات ان كل اليهود الانقياء هم اغنياء بالضرورة ·· وهذا غير صحيح » ·

عباس مراد